متى تكون الحركة في سبيل الله؟

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢/٥/٢٠٠٨م

تقدَّم الكلامُ على قوله تبارك وتعالى: ﴿انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً﴾ [التوبة: ٤١] وكان شرحُ الدرس يقتضي في دلالاته أن هذا كان طلبًا من الله تبارك وتعالى يدعو إلى حركةٍ جماعيَّةٍ منتشرة، وهو يفيد أمورًا ثلاثة:

الحركة، الجماعية، الانتشار.

لكن هل كلُّ حركةٍ جماعية منتشرة يرضاها الله سبحانه؟

إن هذا المفهوم العامَّ قيَّده وخصَّصه ووجَّهه قولُه تبارك وتعالى: ﴿انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾ في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨].

وهاهنا ينتقل قارئ القرآن – وهو يرصد الحركة الجماعية المنتشرة – إلى توجيهٍ يحدِّد مسار تلك الحركة، وحين أتحدث عن المسار مع الانتشار فإن ذلك لا يخرجها عن كونها مستقيمة، وربما يكون من السهل تصوُّر ذلك حينما نعلم أن الأشكال المنتظمة ليست هي المستقيم وحده.

وهذا يطرح سؤالاً على المستوى العمليّ وهو:

إذا كان كتاب الله سبحانه يطلب منا حركة جماعية منتشرة، ويحددها بمفهوم "في سبيل الله"، فمتى تكون تلك الحركة الجماعية المنتشرة في سبيل الله؟ وما معنى أن تكون تلك الحركة الجماعية المنتشرة في سبيل الله؟

أبحث هذا البحث وعندي شعورٌ أن أمتنا في هذا الوقت لا تملك هذه الحركة الجماعية المنتشرة:

فبدلاً من الحركة هي أقرب إلى السكون..

وبدلاً من الجماعية هي أقرب إلى الأنانية والفردية..

وبدلاً من الانتشار هي أقرب إلى اعتماد الركن والجزء بعيدًا عن الشمولية..

لكن قد يكون هذا التقييد والتخصيص "في سبيل الله" معينًا لإخراجنا من هذه الفوضوية السلوكية والمعنوية إلى منهج مسترشد.

وأول شرط حتى تكون الحركة الجماعية المنتشرة حركةً في سبيل الله هو:

١– النية: ولن أحيد في دلالاتي فيما سأتحدث به عن الاسترشاد والاهتداء بهدي الكتاب المنير:

فهذه الحركة الجماعية المنتشرة: ما هي نيَّتُها؟ ما هدفُها؟ ما مقصودُها؟

وقد لفت القرآن الكريم أنظارنا إلى هذه الحقيقة في قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦].

إذًا: يُفهم من هذا أن الإنسان إمَّا أن يكون مع طغيان نفسه، وإما أن يخرج عن طغيان نفسه، فلا يمكن له أن يكون صاحب نية منضبطة في منهج سبيل الله إلاَّ حينما يخرج عن الطاغوت، والطاغوتُ: الطغيان، فطالما أن النفس تملك الطغيان وتتبجَّح به ويبعثها إلى سلوكيات مختلفة فلن تكون إذًا في منهج سبيل الله.

وطغيانُ النفس إعجابُ كلِّ ذي رأيٍ برأيه، والطغيانُ في الأصل هو تجاوُزُ الحدود، وحدُّ الإنسانِ عبديَّتُه، فإذا تجاوز عبديَّتَه كان في الطاغوت، وحين يتجاوز عبديَّتَه لا يكون في سبيل الله.

وعلى هذا فلن يكون في سبيل الله إلا عبدٌ تحقَّق في قلبه بالعبودية، وتحقَّق في سلوكه بالعبادة، وانجذب سرُّه وروحه إلى ربه، فلن يلتفت وهو يوجه وجهه إلى مولاه في قصد واضح لا يختلط بالأهواء.

ما هو المقصود الأول في حياتك؟ أهو الشهرة؟ أهو الثراء...؟

إنه سؤال ينبغي أن يعيده الإنسان مرَّاتٍ ومرَّات حتى يتأكد أنه خرج عن الطاغوت، وبايَنَ معنى الطغيان، وابتعد عن تجاوز الحدّ الذي هو العبودية.

أما القضية الثانية التي تعيننا في تحديد هذا المعنى الدقيق في سبيل الله:

٢- أن تكون موافقة لرسول الله ﷺ، وسبيلِ أهل الإيمان، وسبيلِ من أناب ورجع بقلبه إلى الله:

وهكذا نجد القرآن يتحدث عن سبيل الله بهذه النسب الثلاثة:

* فينسب هذا السبيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما يقول: ﴿قُلْ﴾ وهو يخاطب سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم، ﴿هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨] فهو سبيلُ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي يعبر عن إرادة الله تعالى الشرعية.

فإذا أردت أن تتعرف إلى سبيل الله فافهم سبيل سيدنا رسول الله، وادرس عن قرب وبعمقٍ وفهمٍ ودرايةٍ، تسمح لك هذه الدراية أن تفهم سبيل رسول الله في كل عصر من العصور، فهي في القرن العشرين والواحد العشرين كما هي في القرن السادس والسابع.

* وفي موضع آخر قال: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥] فالذي رجع إلى الله وتبرأ عن أهوائه نَسب اللهُ سبحانه السبيلَ إليه، فقال: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ فكلٌّ من أناب (أي: رجع) إلى الله تعالى فسبيل الله هي سبيله، وسبيله هي سبيل الله.

* وقال في آية أخرى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾ فحينما بدأ يصطدم في سلوكه وآرائه وأهوائه مع المنهج النبويِّ الواضح الذي هو عين الهدى، ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥] فهكذا نسب القرآن هذه السبيل - التي هي سبيل رسول الله وسبيل من أناب إلى الله - إلى المؤمنين.

لأن أهل الإيمان يخرجون عن العبودية لنفوسهم، وعن العبودية للدنيا، وعن العبودية للخلق...

أهلُ الإيمان قدّموا الآخرة على الدنيا، ولهذا قال في الآية التي هي موضع الشاهد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ﴾ فحتى الذي دخل الإيمان إلى قلبه يحتاج إلى جرعة تخرجه عن التعلق الأرضيّ.

فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ وما قال: أسلموا، ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾ أي تحرَّكوا في سبيل الله حركةً جماعيَّةً منتظمةً منتشرةً، ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾ أي: جذبتكم علائق الأرض وعلائق المادة، وشغلتكم عن الرسالية، وعن الحركة الهادفة... مع أن حالَ الأمة حالٌ يُبكي، ولا يَسرُّ مؤمنًا أو عاقلاً أو واعيًا، ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

ألم يترك مصعبُ بن عمير دنياه خارجًا إلى الله مُهاجرًا حتى اخشوشن في الحبشة؟

ألم يترك الأصحابُ كالزبير وسعد وشيوخ الأصحاب وصهيبٍ الروميّ... ألم يتركوا متاع الدنيا وزينتها التحاقًا برسول الله صلى الله عليه وسلم، وتمسكًا بالمنهج الذي يرضاه الله سبحانه وتعالى؟

ألم يترك سيدُنا ياسر والد عمار دنياه هو وزوجته سُمية راحلَين إلى الرفيق الأعلى شهيدين؟

إذًا: سبيل المؤمنين في هذه الآية ليس سبيلَ الصنف الذي ابتدأ الإيمان في قلبه، إنما هو الصنف الذي استجاب فقدّم الآخرة على الدنيا، ولم يرضَ بالحياة الدنيا من الآخرة، ولم يتثاقل إلى الأرض، فإذا تثاقل إلى الأرض فإنه لا يستحق أن يكون في جملة هؤلاء الذي نُسب السبيل إليهم، وهو عينُ سبيل الله وسبيلِ رسول الله وسبيلِ من أناب إلى الله.

الأمر الثالث الذي يُوضّح معنى منهج "في سبيل الله" ويُؤطِّره ويحدِّد معالمه:

٣- أن تكون هذه الحركة الجماعية المنتشرة المنتظمة مُخالِفةً لتوجّهات المعرضين عن الله: بأن تكون مخالفةً في مقاصدها، ومخالفةً في وسائلها التي لا تُستمدّ من روح هذا الدين العظيم.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]

فهو يُحذّرنا - وهو يذكر سبيله - من السُّبُل، أي هناك طُرُقٌ ومناهجُ مُغايرة تمامًا، وفوضوية، ولا تنضبط بحالٍ من الأحوال بمعايير سبيل الله.

وفسّر القرآن الكريم السُّبُل في مواضع منه، بل وعَنْوَنَ كثيرًا من هذه السُبُل، فمنها:

١- سبيل المفسدين: قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

والإفسادُ: إفسادٌ سلوكيٌّ، وإفسادٌ خُلُقيّ، فالإفسادُ السلوكيُّ حَرفٌ للسلوك عن ذلك السلوك الذي دلّ القرآن عليه بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]

والاستقامة: موافقةُ القرآن، وهي الخروجُ عن الفوضوية والانضباطُ بأمر الله، حتى لا يطغى على عقولنا مفهوم الاستقامة الهندسيُّ العُرفيُّ الذي توارثناه في المدارس من خلال تسمية خطٍّ بأنه مستقيم، فكلُّ منتظم منضبط في مفهوم القرآن هو مستقيم.

فقوله: ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي الذين سبيلُهم انحرافٌ عن توجيه الله سبحانه وتعالى في الأخلاق والسلوك.

٢- سبيل الغاوين: قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وفي خطاب الله لإبليس قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٣] فسمّاهم سبحانه "**الْغَاوِينَ**".

فالغوايةُ: اتّباعٌ للشيطان يؤدي إلى انحراف المقاصد، وضلال الإنسان في تيه الفوضى، لأنه حين ضاعت مقاصده عن المقصود الذي أمر الله به وهو: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [يونس: ١٠٥] أصبحت كلمة "الدين" مُرعِبة بسبب الممارسات القذرة التي تُمارسها أدوات الإعلام الغربية.

كلمة "الدين" في مفهومنا تختلف كثيرًا عن مفهوم الدين الذي هو غير الإسلام، فالذي هو غير الإسلام طقوسٌ، وإنما هي بعضٌ من المعاني التي تسبح وراء الطبيعة.

أما الدين في مفهومنا الإسلاميّ فإنه الحياة كلها، في حسِّها ومادَّتها، وفي روحها ومعناها.

نحن حين نتحدّث عن الدين نفخر بأننا نملك السلوك الأقوم، ونملك الخُلُق الأقوم، ونملك النظام الأقوم، ونملك التوجّه الأقوم...

الدين فخرٌ لمن فهمه من أمة الإسلام، ومن أمة محمد عليه الصلاة والسلام.

٣- سبيل المجرمين: قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]

والإجرام يغلب أنه التلطُّخ بظلم العباد، والتلطُّخ بظلم النفس، فالظلم هو عنوان الإجرام.

٤- سبيل الجاهلين الذين لا يعلمون: الذين يُصرُّون على ترك العِلْم.

وكنت كثيرًا أتحدث مع بعض أصدقائي وإخواني وأقول لهم: لا تُسمُّوا ما يرد من المكتشفات عِلمًا، بل سمّوه تجربة أو اكتشافًا، فهذا من الخطأ الشائع، لأن العِلم هو ما كان مُطابقًا للحقيقة، ولا يمكن أن يكون مُطابقًا للحقيقة إلا عِلْمُ الله، والقرآنُ أنــزله الله بعلمه.

أما التجربة...!

وكم من الاكتشافات والنظريات وما يرد في مساحات الفيزياء والكيمياء والفلك... يتغيّر كل يوم!

وعندما تُسمّيه علمًا تُخطئ، فالعِلْم لا يكون علمًا إلاَّ عندما يكون مطابقًا للحقيقة، وكيف لك أن تجزم بالمطابقة للحقيقة إلا عندما تكون مستندًا إلى عِلْم الله؟

وكانوا يُدرّسون في مناهجنا منذ ما يقرب من خمسين سنة - بحسب ما ورد من الغرب - أن الشمس ثابتة غير متحركة - وهذا موجود في كتب العلوم، ومن أراد أن يرجع إلى الأرشيف التاريخيّ فليرجع - ثم جاء تعميم بأنه قد ثبت أن الشمس تجري، والله يقول: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾ [يس: ٣٨] وأُلغيت هذه الكلمة.

إذًا: العِلْم إنما هو ما كان مطابقًا للحقيقة.

ومصدر العلم واحد، وهو الحقيقة المطلقة التي هي علم الله، قال تعالى: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿عَلَّمَ الإِنْسَانَ﴾ [العلق: ٥].

قال سبحانه: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩]

فالجاهلون الذين لا يعلمون هم الذين يصرُّون على ترك مصدر العِلْم الأوحد.

نعم، نحن لا نعادي التجربة، بل ندعو إلى التجربة، وندعو إلى البحث، لكن البحث لا يعني الجزم بأن نتيجته مطابقة للحقيقة.

لقد أَمَرَنا الله بالتجربة، وأمرنا بالبحث، وسبقنا الغرب في البحث وتخلّفنا نحن فيه، لكنني أتحدث عن مفردة العِلْم.

﴿وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي: الذين يصرّون على ترك مصدر العِلْم.

٥- سبيل الكافرين: قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ [العنكبوت: ١٢]

فنسب ربُّنا - وهو ينقل عنهم - سبيلاً من السبل إلى الكافرين، والكافرون هم الذين يتعمّدون ستر الحقيقة، فقوله: "كَفَرَ" أي سَتَرَ، والكافرون: الساترون للحقيقة.

وبقي في البحث أن نقول: ما هي أسباب اتِّباع السُبُل؟

ولماذا يترك الإنسان سبيل الله الواضحة وينحرف إلى السُبُل؟

إنها قضية حينما تتأملها بعقلك تجدها قضية عجيبة، والجواب على هذه الأسئلة كما يذكر القرآن:

١- التقليد الأعمى الذي يعطل العقول:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾ [الأحزاب: ٦٧]

٢- متابعة أهواء النفس من غير اهتداءٍ بهدي وحي الله سبحانه:

قال تعالى: ﴿وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:٢٦] أي أهواء نفسك التي تلعب بك يمنةً ويسرة.

اخرج عن هواك: **(لا يُؤْمِنُ أحَدُكُمْ حتى يَكُونَ هَواهُ تَبعاً لَما جِئتُ به)**..

لا تقف مع بشريتك إذا تعارضت بشريتك مع الوحي.. لا تقف مع مالك إذا تعارض مالك مع الوحي..

لا تقف مع زوجتك إذا تعارضت مع الوحي.. لا تقف مع أولادك إذا عارضوا الوحي...

وهكذا حينما يميل الإنسان بهواه، عند ذلك سيضيع عن سبيل الله: **"لا يُخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تَلْتَبِسَ الطُّرُقُ عَلَيْكَ، إِنَّما يُخَافُ عَلَيْكَ مِنْ غَلَبَةِ الهَوى عَلَيْكَ"**.

٣- ترغيب الناس أو ترهيبهم بغير الله: يقول سبحانه: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الزمر: ٨]

فيقول للناس: ارهبوا زيدًا، وخافوا عَمْرًا، وارغبوا في بكر، أو هذا ينفعكم، وهذا يرفعكم، وهذا يخفضكم... مع أنه لا يخلق إلا الله، ولا يخفض إلا الله، ولا يرفع إلا الله...

فهناك من يمارس التخويف بغير الله، وهناك من يمارس الترغيب بغير الله، ليصرف الناس عن الله.

٤- مودَّة محاربي الله ورسوله: الذين يحاربون الله ورسوله ليلَ نهار، وأنت تحمل لهم في قلبك المودَّة والمحبة؟

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

على الإنسان أن يراقب قلبه، فإذا وجد في قلبه الحبَّ في الله، وإذا عرف أن الذي أحبَّه قلبُه محبوبٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم - وميزان ذلك منهجه وسلوكه - فليستبشر، لكن حين تنظر إلى قلبك فتجد فيه محبة من حارب الله ورسوله، إذًا فاعلم أن هذا الأمر صارفٌ لك عن سبيل الله.

إنما هي ورقة مجملة، والبحث مستفيض فيها أكثر، لكن ليتنا نتحقق بما نسمعه.

رُدَّنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.